

شرح قصيدة أبو ذؤيب الهذلي يرثي أولاده الخمسة

إن القصيدة التي اشتهر بها الشاعر المخضرم أبو ذؤيب الهذلي والتي سارت على ألسن الناس وارتبط اسمها بالشاعر هي قصيدة الرثاء التي كتبها الشاعر يرثي بها خمسة من أولاده أصابهم الطاعون في عام واحد فاهلكهم، فما كان من الشاعر إلا أن نظم هذه القصيدة التي ارتبط اسمها بشعر الرثاء، فتكاد لا تذكر كلمة الرثاء إلا وتذكر أبيات هذه القصيدة، وفي السطور الآتية سنشرح لكم ما تيسر لنا من أبيات هذه القصيدة:

• أَمِنَ الْمَنُونِ وَرَيْبِهَا تَنْوَجُّعٌ ***** وَالذَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتَبِرٍ مِنْ بَجْرَعِ

يسأل الشاعر نفسه أو يتحدث على لسان زوجته أميمة التي تسأله: هل تتوجع من تلك الحادثة التي سلبت منك أبناءك فعليك إذاً أن تتحلى بالصبر لأن شدة الحزن ستهلكك إذا لم تصبر وتزرع على مصيبتك والجزع هو: حُزْنٌ يَصْرَفُ الْإِنْسَانَ عَمَّا هُوَ بِصَدَدِهِ، وَيَقْطَعُهُ عَنْهُ.

• قَالَتْ أُمَيْمَةُ مَا لِحِسْمِكَ شَاحِبًا ***** مُنْذُ ابْتَدَأْتَ وَمِثْلُ مَا لِكَ يَنْفَعُ

وفي هذا البيت تسأل زوجة الشاعر أميمة وتقول: انظر لجسدك الذي أصبح شاحباً هزيباً من شدة الحزن والألم منذ ذلك اليوم الذي أعلنت فيه الحزن وامتهنت اليأس والأسى، فما سر كل ذلك الشحوب هل هو من أثر تلك الفاجعة.

• أَمْ مَا لِحَبْنِكَ لَا يَلَانِيُمْ مَضْجَعًا ***** إِلَّا أَقْضَى عَلَيْكَ ذَاكَ الْمَضْجَعِ

ثم انظر إلى جنبك الذي لا يكاد يلمس الفراش وإذا أردت أن تنام فإنك لا تستطيع التلاؤم معه ولا تستطيع المكوث فيه، وما إن يلامس جنبك الفراش فإنك تتألم ولا تستطيع الصبر على ذلك.

• فَأَجْبِئْهَا أَنْ مَا لِحِسْمِي أَنَّهُ ***** أَوْدَى بَنِيَّ مِنَ الْبِلَادِ فَوَدَّعُوا

فأجبت زوجتي أميمة أن الذي أوصلني إلى ما أنا فيه والذي سبب لجسدي ذلك المرض والتعب هو تلك الفاجعة التي أصابت أبنائي وسلبتهم مني وأخرجتهم من هذه الحياة.

• أَوْدَى بَنِيَّ وَأَعْقَبُونِي عُصَّةً ***** بَعَدَ الرُّقَادِ وَعَبْرَةَ لَا تُقْلَعُ

فقد كانت هذه الفاجعة في ذهاب أبنائي من هذه الحياة هي التي سببت لي تلك الغصة في صدري وخلفت تلك العبرة في صدري التي لم تفارقني أبداً.

• وَلَقَدْ حَرَصْتُ بَأَنْ أَدْفَعُ عَنْهُمْ ***** فَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَقْبَلَتْ لَا تُدْفَعُ

ولقد كنت شديد الحرص على أبنائي وعلى استعداد دائم للدفاع عنهم وحمايتهم والتضحية من أجلهم بكل ما أملك، ولكن حكم الله في المنية والموت لا يرد، ولا أحد يستطيع دفع المنية عن أحد.

• وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا ***** أَلْفَيْتُ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

فإذا جاءت المنية وأظهرت أظفارها لتنتزع الروح من ضحاياها، فلم يعد ينفع أمامها أي شيء من صنف التميمية.

• فَالْعَيْنُ بَعْدَهُمْ كَأَنَّ جِدَاقَهَا ***** سُمِلَتْ بِشَوْكٍ فَهِيَ عَوْرٌ تَدْمَعُ

فكان عينيها قد أصابها شوك حاد من أثر تلك المصيبة فأصبحت عينيها كأنها عوراء تذرف منها الدموع.

• حَتَّى كَأَنِّي لِلْحَوَادِثِ مَرَوَةٌ ***** بِصَفَا الْمُشْرِقِ كُلِّ يَوْمٍ تُقَرِّعُ

ولم تكن تلك الفاجعة هي المصيبة الوحيدة التي صادفتها في حياتي فكانني مثل الصفا والمروة والمصائب مثل الساعي بين الصفا والمروة تطرقني وتصيبني في الغدوة والروحة.

• لَا بُدَّ مِنْ تَلْفٍ مُقِيمٍ فَإِنْتَظِرْ ***** أَبَارِضِ قَوْمِكَ أَمْ بِأَخْرَى الْمَصْرَعِ

ولن يهرب أحد من المنية، ولا بد له من الموت المحتم، فلا مقيم يبقى ولا حي يخلد في هذه الحياة، ولا تدري نفس بأي أرض تموت.

• وَلَقَدْ أَرَى أَنَّ الْبُكَاءَ سَفَاهَةٌ ***** وَلَسَوْفَ يَوْلَعُ بِالْبُكَاءِ مَنْ يَجْعُ

وكنت أؤمن بأن البكاء من شدة الحزن نوع من أنواع السفاهة لأنه لا يرد غائباً ولا يزيل مصيبة، ولكنني بعد أن أصابتنى تلك المصيبة لم أجد نفسي إلا أجهش بالبكاء من غير انقطاع ولم أعد أستطيع كبح نفسي ومنعها من البكاء.

• وَلِيَأْتِيَنَّ عَلَيْكَ يَوْمٌ مَرَّةً ***** يُبْكِي عَلَيْكَ مُقْتَعًا لَا تَسْمَعُ

ولست وحدك الذي سوف تبكي على الأشخاص العزيزين الذي وافتهم المنية قبلك، فلا بد لك أن تأتي منيتك، وعندها ستكون أن من يبكي عليك، وعندها لن تستطيع سماع أصوات الناس الذين سيكون عليك.

• وَتَجَلْدِي لِلشَامِتِينَ أُرِيهِمْ ***** أَتَى لَرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَنْتَضَعُ

وهنا ينتقل الشاعر إلى تعزية نفسه وحثها على الصبر والاحتساب يقول: عليك أيتها النفس أن تكوني قويةً شديدةً لا تبتدين ضعفك ولا هوانك أمام الشامتين الذين يتربصون بك، وعليك أن تريهم أنك شديدة على بأس الزمان وكل صروف الدهر ومصائبه لا تؤثر بك.

• وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَبَتْهَا ***** فَإِذَا تُرِدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

فالنفس البشرية يمكن ترويضها والسيطرة عليها فهي تعتاد على ما تعودها عليه فإن أطلقتها وتركتها على هواها فإنها تصبح جشعة طامعة ولن تستطيع السيطرة عليها بعد ذلك ولن تتمكن من إشباع حاجاتها، وإذا عودتها على القليل فإنها ستتعود على ذلك، وقد قيلت الكثير من الأبيات التي تتوافق مع هذا المعنى منها قول البوصيري، والنفس كالطفل إن تهمله شبَّ على حُبِّ الرِّضَاعِ وَإِنْ تَقَطَّمَهُ يَنْفَطِمَ.

• كَمِ مِنْ جَمِيعِ الشَّمْلِ مُلْتَمِئِ الهَوَى ***** بَاتُوا بِعَيْشِ نَاعِمٍ فَتَصَدَّعُوا

فكم من أناس كانوا يعيشون في رغد عيش وحياة هنيئة وكانت أبواب النعم مفتوحة لهم ولم يكونوا يتوقعون أن تزول عنهم تلك النعم، فما إن أصابتهم مصيبة فقد أثرت فيهم وصدعتهم ونكدت عيشهم.